

□ أبو حيان التوحيدي وموضوع حوار الثقافات والحضارات

د. لزهرة مساعدي

جامعة ميله

إن الحوار مع الآخر تقليد حضاري تبنته ومارسته جميع الحضارات في كل العصور، وهو لا ينفي الاختلاف إذ الاختلاف قيمة حضارية تقتضي تقبل الآخر بصورته المختلفة عن الأنا، والإقرار بحريته الدينية والسياسية والفكرية والعمل على ضمان هذا الحق والتضحية في سبيل تحقيقه. وهذا الحوار يتطلب قبول أطراف الحوار بالاختلاف وإدراكهم أنّ للحوار مستويين: أولهما، داخلي ضمن الحضارة نفسها لإبراز الخطاب الجامع المعتمد. وثانيهما، خارجي موجه إلى أطراف الحوار الخارجية الأخرى. وذا يتطلب الاقتناع بضرورة سعي كل طرف من الأطراف المتحاوره لفهم خطاب الطرف الآخر ومحاولة احترامه من خلال استبعاد الهيمنة التي تعد بحق نقيض الحوار إذ لا تتمظهر إلا في صورة الصراع.

فالحوار لا يقوم إلا باحترام الآخر، من خلال معرفته، والإصغاء إليه، والعمل معه، وعدم اتخاذ القرارات بدلا عنه. وهكذا، فالحوار يهدف إلى الاتفاق على صياغة مجموعة قيم عالمية تأخذ في اعتبارها التنوع الإنساني الخلاق، لتحقيق التوافقات بين ثقافات العالم جميعا.

والثقافة العربية لم تكن يوما في عزلة عن الثقافات الإنسانية المجاورة لها والمتعايشة معها، فهي لم تغلق على ذاتها بل تفتحت وتسامحت وتعايشت... فهذا آدم مitzer يعترف بأن الحضارة الإسلامية قد اتسمت بتسامحها مع غيرها من الأديان تسامحا "لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم"⁽¹⁾.

فالثقافة لا تستطيع الاستمرار دون التواصل مع غيرها من الثقافات للإفادة والاستفادة، للأخذ والعطاء. فهي تمثل مشتركا إنسانيا في صورة من صوره. كما أن بعض العوامل المشتركة بين المجموعات البشرية هي التي تسهم في بناء تواصلات ينشد من ورائها استمرارية الإنسان متعايشا مع بني جلدته من غير تعصب..

وستخير الأديب أبا حيان التوحيدي لأنه يعد وبحق من أهم الأدباء العرب الذين أولو موضوع حوار الثقافات والحضارات الأهمية اللازمة.

لذلك سيسعى هذا المقال إلى محاولة تبين نظرة أبي حيان وسيحاول الإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها:

❖ كيف نظر أبو حيان إلى حضارة وثقافة العرب؟

❖ وكيف نظر أبو حيان إلى حضارات الأمم السابقة؟ أمن خلال الموازنة بينها وبين حضارات وثقافات

الأمم الأخرى كالحضارة الفارسية على سبيل التمثيل؟

❖ وهل تم كشف ذاك الحوار الحاصل من خلال ما تركه؟

فإذا أردنا أن نتبين بداية حقيقة الحوار الداخلي عند أبي حيان التوحيدي مع بني جلدته فإنه لا يفوتنا أبدا أن الحوار كثيرا ما يكون متعبا لصراع أو يكون نتيجة له فأبو حيان التوحيدي وهو الذي استمد آراءه من تجربته

الحياتية، حيث أمضاها بائسا ، فقيرا ، منبوذا ، جاب البلدان، وقصد الأمراء ولم يحظ بطائل، فحقد على كل الناس وأراد الانتقام منهم ، كما أقدم على إحراق بعض كتبه، معللا ذلك في رسالة أرسلها إلى صديق له كان قد لامه عن فعلته تلك، ومما جاء في الرسالة ما يلي : " وإني جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ، و لمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ...ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا وصاحباً قريبا، وتابعا أديبا ورئيسا منيبا، فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها ...وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة، فما صح لي من أحدهم وداد ؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة... إلى بيع الدين والمروءة ...وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، وما يطرح في قلب صاحبه الألم "(2).

فإن كان هذا الحوار الداخلي مع صديق يكشف عن سلبية مقبلة هي أقرب الى الصراع الداخلي منه الى الحوار فإنه ما كان ليثني أبا حيان- في حوارهِ الخارجي- عن الدفاع عنهم أمام هجوم الثقافات الأخرى ممثلة في ألسنة أدبائها ومثقفها على الثقافة والحضارة العربية فكان لسان حال هذه الأخيرة ويتجلى ذلك خاصة في الليلة السادسة من كتابه الإمتاع والمؤانسة وبالضبط في رده على الجيهاني " وهو يسب العرب، ويتناول أعراضها، ويحط من أقدارها، ويقول: يأكلون اليرابيع والضباب والجردان والحيات.. قال: ولهذا كان كسرى يسمي ملك العرب: (سكان شاه) أي ملك الكلاب، قال: وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجرائها، والذئاب وأطلائها، وكلاماً من هذا الصوب"(3) ، كما يقول في موضع آخر "مما يدل على شرفنا وتقدمنا وعزنا وعلو مكاننا، أن الله أفاض علينا النعم، ووسع لدينا القسم، وبوأنا الجنان والأرياف، ونعمنا وأترفنا. ولم يفعل هذا بالعرب، بل أشقاهم وعذبهم، وضيق عليهم وحرّمهم، وجمعهم في جزيرة حرجة. ورقعة صغيرة، وسقاهم بأرنق ضاح؛ وبهذا يعلم أن المخصوص بالنعمة والمقصود بالكرامة فوق المقصود بالإهانة"(4) وكان الرد أن قال: " أترأه لا يعلم لو نزل ذلك القفر وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي وتلك الفيافي والموامي، كل كسرى كان في الفرس، وكل قيصر كان في الروم، وكل بلهور كان بالهند، وكل يقفور كان بخراسان، وكل خاقان كان بالترك وكل أخشاد كان بفرغانة وكل صبهذ كان من أسكنان وأرد وان ما كانوا يعدون هذه الأحوال لأن من جاع أكل ما وجد، وطعم ما لحق، وشرب ما قدر عليه، حباً للحياة، وطلباً للبقاء، وجزعاً من الموت، وهرباً من الفناء. "(5) .

ليعود الى تبيان أن العرب اضطرتهم الظروف الى أكل اليرابيع والضباب والجردان والحيات ، ولو أن غيرهم نزلوا منازلهم ما كانوا سيفعلون شيئاً أفضل منهم على أن العرب إذا لم تبخلهم السماء كان لهم شأن آخر، فيقول : "على أن العرب - رحمك الله - أحسن الناس حالاً وعيشاً إذا جادتهم السماء، وصدقتهم الأنواء؛ وازدانت الأرض، فهدلت الثمار، واطردت الأودية، وكثر اللبن و الأقط والجبن واللحم والرطب والتمر والقمح، وقامت لهم الأسواق، وطابت المرافق وفشا الخصب، وتوانى النتاج... وتلاقت القبائل على المحاضر، وتقاولوا وتضايقوا، وتعاهدوا وتعاهدوا، وتزاوروا وتناشدوا؛ وعقدوا الذمم، ونطقوا بالحكم؛ وقرؤا الرقاق ووصلوا العفاة، وزودوا السابلة، وأرشدوا الضلال، وقاموا بالحمالات وفكوا الأسرى، وتداعوا الجفلى، وتعافوا النقرى، وتنافسوا في أفعال

المعروف؛ هذا وهم في مساقط رعوسهم، بين جبالهم ورمالهم، ومناشئ آبائهم وأجدادهم، وموالد أهلهم وأولادهم⁽⁶⁾

ثم يتزل رصدا لفضائل العرب دون سواهم من الشعوب مشيرا الى أن محاسن جميع الأمم وفضائل جميع الأجيال قد تحولت إليهم فيقول : "وقد رأيت حين هبت ريحهم وأشرق دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملة، وعزت ملتهم بالنبوة، وغلبت نبوتهم بالشرعية، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونضرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدينية، كيف تحولت جميع محاسن الأمم إليهم وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكدحوا في حيازتها أو تعبوا في نيلها، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفواً، وقطنت بين أطناب بيوتهم سهواً رهواً؛ وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلي مستحقه باختياره؛ ولا غالب لأمر الله، ولا مبدل لحكم الله، ولذلك قال الله تعالى: "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعزعه من تشاء وتغز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير"⁽⁷⁾...

كما استند إلى كلام على لسان ابن المقفع يفضي الى تفضيل العرب على سائر الأمم قائلا : "أقبل علينا ابن المقفع، فقال: أي الأمم أعقل؟ فظننا أنه يريد الفرس، فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربتة، ونتوخى مصانعة. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم علموا فتعلموا، ومثل لهم فامثلوا واقتدوا وبدؤوا بأمر فصاروا إلى اتباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبدان وثيقة وهم أصحاب بناء وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما.

قلنا: الفصين. قال: أصحاب أثاث وصنعة، لا فكر لها ولا روية. قلنا: فالترك. قال: سباع للهراس. قلنا: فاهند. قال: أصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة. قلنا: فالزنج. قال: بهائم هاملة. فرددنا الأمر إليه. قال: العرب"⁽⁸⁾. ويرى أن "المدار على العقل الذي من حرمه فهو أنقص من كل فقير، وعلى الدين الذي من عري منه فهو أسوأ حالاً من كل موسر..."⁽⁹⁾

وحاول أبو حيان أن يتحلى بشيء من الموضوعية حين أشار الى التمازج الثقافي والحضاري وان الحضارات تأخذ برقاب بعضها كما يكمل بعضها فيقول: "اشتركت الأمم في جميع الخيرات والشور، وفي جميع المعاني والأمور، اشتراكاً أتى على أول التفاوت ووسطه وآخره، ثم استبدت كل أمة بقوالب ليست لأختها، واشتراكهم فيها كالأصول، واستبدادهم كالفرع، وفيما اشتركوا الحمود والمذموم... إلا أنهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسموا أشياء بين الفطرة والتنبيه، وبين الاختيار والتقدمة، فصار: الاستنباط والغوص والتنقيب والبحث والاستكشاف والاستقصاء والفكر ليونان، والوهم والحدس والظن والحيلة والتخيل والشعبذة للهند، والحصافة واللفظ والاستعارة والإيجاز والاتساع والسحر باللسان للعرب، والروية والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسوم والعبودية والربوبية للفرس، فأما الترك فلها الشجاعة، والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة، وليس بعد هذا للترك حظ ولا دراية إلا بقسط من الظل من الشخص. والعرب مع منطقتها البارع لها المزية المعروفة على الترك في السياسة..."⁽¹⁰⁾.

وأضاف قائلاً: "ومن جحد بلاغة العرب في الخطابة وجولانها في كل مجال، وتميزها باللسان فقد كابر، ومن أنكر تقدم يونان في إثارة المعاني من أماكنها، وإقامة الصناعات بأسرها، وبحثها عن العالم الأوسط والأسفل فقد هت. ومن دفع مزية الفرس في سياستها وتدابيراتها، وترتيب الخاصة والعامة فقد عاند، وهكذا من دفع ما للهند... " (11). فهو يرى أن " كل قوم في إقبال دولتهم شجعان... وعلى هذا كل أمة في مبدأ سعادتها وأفضل وأنجد وأشجع وأمجّد وأسخر وأجود وأخطب وأنطق وأرأى وأصدق؛ وهذا الاعتبار ينساق من شيء عام لجميع الأمم، إلى شيء شامل لأمة أمة إلى شيء حاوٍ لطائفة طائفة، إلى شيء غالبٍ على قبيلة قبيلة، إلى شيء معتادٍ في بيت بيت، إلى شيء خاص بشخص شخص وإنسان إنسان؛ وهذا التحول من أمة إلى أمة، يشير إلى فيض جود الله تعالى على جميع بريته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله ومن رقي إلى هذه الربوة بعين لا قذى بها، أبصر الحق عياناً بلا مرية" (12).

كما لم يغفل أبو حيان التوحيدي قضية التعصب التي تسبب دوماً حجب الاعتراف والإقرار بصاحب الحق والغلبة والتفوق إذ أن "الفارسي ليس في فطرته ولا عاداته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربي، ولا في جبلة العربي وديدنه أن يقر فضل الفارسي. وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي؛ وبعد، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين: أحدهما ما خص به قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار للجد والرياء، والرأي الصائب والفائل، والنظر في الأول والآخر" (13).

فالرذائل كما الفضائل والمحاسن كما المساوئ تتساوى فيها جميع الأمم ولكل منها حصة تشارك بها بني الإنسان يقول أبو حيان التوحيدي: "هذا فلكل أمة فضائل ورذائل ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلا وعقدها كمال وتفسير؛ وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم. فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم؛ وللروم الحكمة؛ وللهند الفكر والرؤية والخفة والسحر والأناة؛ ولترك الشجاعة والإقدام؛ وللزنج الصبر والكد والفرح؛ وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان. ثم إن هذه الفضائل المذكورة، في هذه الأمم المشهورة، ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها؛ ثم في جملتها من هو عارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعني أنه لا تخلو الفرس من جاهل بالسياسة، خالٍ من الأدب، داخلٍ في الرعاع والهمج؛ وكذلك العرب لا تخلو من جبانٍ جاهلٍ طياشٍ بخيلٍ عبي وكذلك الهند والروم وغيرهم؛ فعلى هذا إذا قبل أهل الفضل والكمال من الروم بأهل الفضل والكمال من الفرس، تلاقوا على صراط مستقيم، ولم يكن بينهم تفاوتٌ إلا في مقادير الفضل وحدود الكمال، وتلك لا تخص بل تلم" (14).

ويعد أدب أبي حيان شاهداً على التمازج الثقافي بين الأمم سابقها ومزامنهما - في عصره - حيث يستشف القارئ تغلغل الثقافتين الفارسية واليونانية في الوسط العربي ممثلة في أشكال عدة كتبني بعض لغاتهم وحكمهم وأمثالهم وحكاياتهم يقول: "كانت الفرس تقول: مَنْ قدر على أن يتحرز من أربع خصال لم يكن في تدبيره خلل: الحرص، والعُجب، واتباع الهوى، والتواني.

لقد صدقت الفرسُ في هذا، والأمم كلها شركاء في العقول، وإن اختلفوا في اللغات، ولا أحد قد نطح إلى الكمال، وتناول إلى الفضل إلا وهو يعلم: أن الحرص يسلبُ الحياءَ، والعُجبُ يَجلبُ المقتَ، واتباعُ الهوى يورثُ الفضيحة، والتواني يكسبُ الندامة، ولا أحد أيضاً إلا وهو متسمٌ بهذه الأشياء على التفاضل الواقع، نسأل الله الهداية والعصمة " (15) .

وهكذا فالحكمة تتوزعها الأمم جميعاً ، فتحصل كلُّ أمة على جانب منها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحوزها أمة دون غيرها.

كما يمكن أن نتخير من أمثال الفرس التي أوردتها أبو حيان التوحيدي قولهم:
: مطرة في نيسان خير من ألف شان⁽¹⁶⁾ .

وقولهم : رب لازم لعرضته قد فاز ببغيته⁽¹⁷⁾ .

وقولهم: " الناس أربعة: أسد وذئب وثعلب وضأن. فأما الأسد فالملوك يفرسون ويأكلون. وأما الذئب فالتجار، وأما الثعلب فالقوم المخادعون، وأما الضأن فالمؤمن ينهشه من رآه" (18) .

وأما من أمثال اليونان التي أوردتها قولهم⁽¹⁹⁾:

● قوة العزمِ بنبيلِ البُغيةِ.

● جهل القَدْرِ يُعقبُ بطراً وخوراً.

● أَمْنُكَ عدوك بُغيته.

فأبو حيان يرى في هذه الأمثال "نوادير كلام اليونانيين، وقد مر في هذا الكتاب، ويمر ما إذا جمعتهم وأفردته، زادك حسنه، واثالث عليك فائدته، فخذ منها، ومن غيرها، كل حسن بهيج، نفعك الله بالعلم، وبصرك بالهدى" (20) .

وبذلك تتضح في كتبه الدعوة الواضحة إلى حوار الحضارات والثقافات، إذ لا تستطيع أية أمة أن تملك بمفردها الحكمة والمعرفة والأدب والصناعة، وعليه توجب الحوار بغية الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر...

ويكفي الأديب أبا حيان التوحيدي فخراً شهادة المفكر خوان أنطونيو باتشيكو بانياً جَو الذي يقول في كتبه أنها قد قدمت " سيرة ثقافية ذاتية في مستوى أنشطته المعينة وهي علمية تماماً على مستوى تطلعاتها ونتائجها، لذلك نجد عبر مؤلفاته التي تنضوي تحت كلمة «أدب» تاريخ الأدب والجدل، والتصوف، ما يمكن أن نعتبه بـ «الفرد العالمي»" (21) .

الهوامش:

1. . آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 1976، المجلد (2)، ص75.

2. سميرة سلامي ، الاغتراب في الشعر العباسي ، 2000. ص 18 .

3. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ، ج1. ص79.

4. المصدر نفسه. ج1. ص86.

5. المصدر نفسه. ج1. ص80.

6. المصدر نفسه. ج1. ص80-81.

7. المصدر نفسه: ج.1 ص.81.
8. المصدر نفسه. ج.1 ص.68-69.
9. المصدر نفسه. ج.1 ص.87.
10. المصدر نفسه. ج.1 ص.211.
11. المصدر نفسه. ج.1 ص.212.
12. المصدر نفسه ج.1 ص.74-75.
13. المصدر نفسه. ج.1 ص.70-71.
14. المصدر نفسه. ج.1 ص.71-72.
15. أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 1988، ج.1 ص.228.
16. المصدر نفسه. ج.3 ص.115.
17. المصدر نفسه. ج.4 ص.153.
18. المصدر نفسه. ج.4 ص.194.
19. المصدر نفسه. ج.3 ص.179.
20. المصدر نفسه ج.3 ص.181.
21. خوان أنطونيو باتشيكو، أبو حيان التوحيدي أو العالمي الفرد، 1995، الجزء (1) المجلد الرابع عشر، العدد (3)، مجلة فصول. ص 48.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

1. خوان أنطونيو باتشيكو، أبو حيان التوحيدي أو العالمي الفرد، مجلة فصول، 1995، الجزء (1) المجلد الرابع عشر، العدد (3).
2. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، ج.1.
3. أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق . وداد القاضي، دار صادر، بيروت، 1988، الأجزاء: 1+3+4
4. سلامي سميرة، الاغتراب في الشعر العباسي، دار الينايع، دمشق، 2000.
5. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريد، دار الكتاب العربي، ط 4، بيروت، المجلد (2)، 1976.